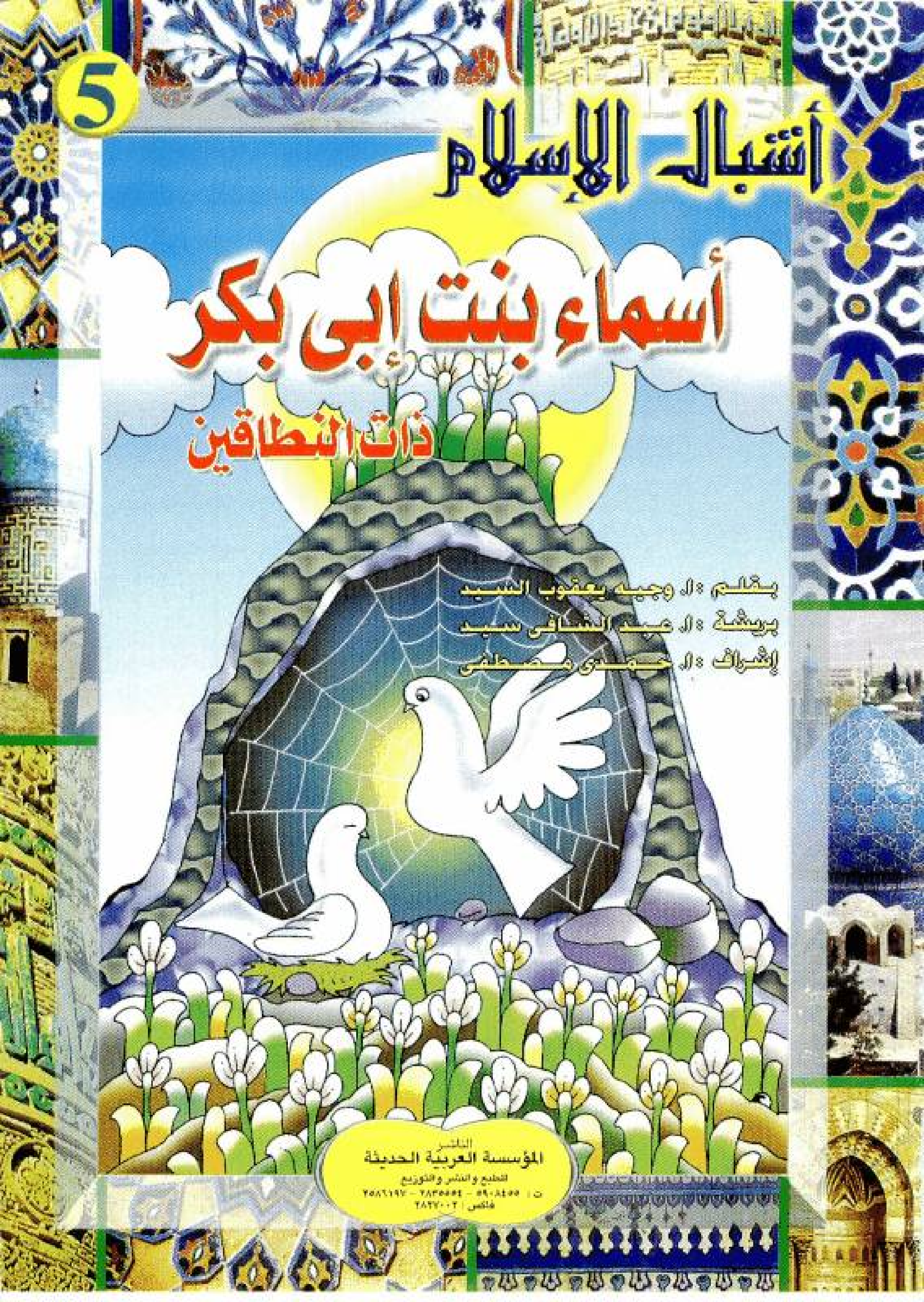

5
أشبال الإسلام
أسماء بنت إبى بكر
ذات النطاقين
بقلم : ا. وجيه يعقوب السيد
بريشة : ا. عبد الشافى سيد
إشراف : ا. حمدى مصطفى
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢



أشبال الإسلام

5

« الطفولة » مرحلة مهمة للغاية . وهى ليست مجرد مرحلة للهو واللعب وتضييع الوقت فيما لا يفيد ، ولكنها مرحلة إعداد جادة لما سيكون عليه الإنسان فى شبابه وفى رجولته .

وفى هذه السلسلة تطالع :

صورا مختلفة للنبوغ والتفوق والبطولة الخارقة والرجولة المبكرة عند « أبطال صغار » صنعوا المعجزات برغم حداثة أعمارهم ، فكان من بينهم « العالم ، والمحارب الشجاع ، وقائد الجيش .

إن « الطفل الصغير » يستطيع أن يعرف دوره فى الحياة ، من خلال مطالعته لهذه النماذج المشرقة ، ويستطيع أن يقدم الكثير من الأعمال النافعة لنفسه ولأسرته ولوطنه .

وسوف يجد الطفل المتعة فى أثناء قراءة هذه السلسلة التى كتبت بأسلوب قصصى مشوق ولغة أدبية شفافة .

وجيه يعقوب السيد
مدرس مساعد بكلية الألسن
جامعة عين شمس

أسماء بنت أبى بكر

بقلم : أ. وجيه يعقوب السيد
بريشة : أ. عبد الشافى سيد
إشراف : أ. حمدى مصطفى

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٨٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٩٧٠٠٢

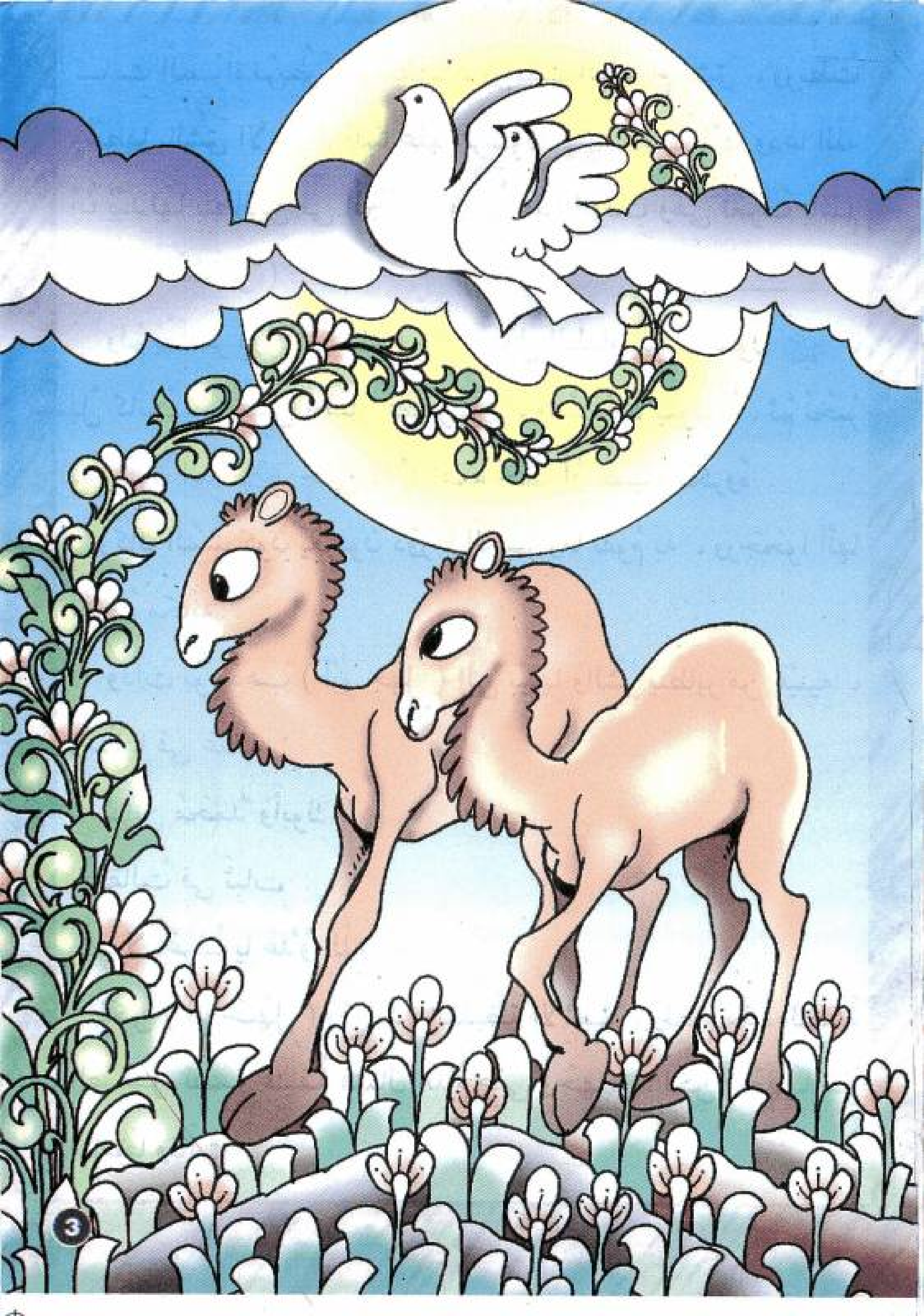
هذه الْفتاةُ الصَّغيرةُ ، كالْوَرْدَةِ التى مازالَتْ تتفتَّحُ ، إذا ذُكِرَتْ هِجْرةُ الرسول ﷺ ، ذَكرَها الْجَميعُ ، وتَذكَّروا دَوْرَها الْحَيَوِىَّ فى هذا الْحَدَثِ الْعَظيم .

إنَّها (أَسْماءُ بِنْتُ أَبى بكْر الصِّدِّيقِ) . . أَوْ ذاتُ النِّطاقَيْنِ كما كانَتْ تُلَقَّبُ .

بعْدَ أَن هاجَر الرَّسولُ ﷺ هُوَ وصاحِبُه (أَبوُ بكْر) منْ مَكَّةَ إلى الْمدِينَةِ ، كانتْ (أَسْماءُ) تخْرجُ مُتَخَفِّيَةً ، وهى تَحْمِلُ الطَّعامَ والْماءَ لِرسولِ اللَّه ﷺ وأَبيها .

وعلَى الرَّغمِ منْ بَساطَةِ هذا الأَمرِ ـ كما يَبْدُو ـ إلاَّ أَنَّه كانَ فى غايَةِ الأَهَمِّيَّةِ لكَىْ تَتمَّ هذه الْهِجْرَةُ بِنَجاح ، فقدْ كان الطَّريقُ من مكَّةَ إلى الْمدِينَةِ طَويلاً وشاقًا ، ولِكَىْ يواصِلَ الرَّسولُ ﷺ وصاحِبُهُ السَّيْرَ ، كان لابُدَّ لهما منْ زاد ، فكانَتْ هذه الطِّفْلَةُ الصَّغيرَةُ هى التى تطوَّعَتْ لِلْقيام بهذا الأَمرِ ، مُعرِّضَةً حياتَها لِلْخطَر فى سبيلِ هذا الْهدَفِ النَّبيلِ .

والسِّرُّ فى تَسْمِيَتِها بذاتِ النِّطاقَيْن ، أَنَّها كانتْ قدْ صَنَعَتْ طعامًا للرَّسولِ ﷺ ، وبَحَثتْ عنْ شىْء تربِطُ به هذا الطَّعامَ فلَمْ تجِدْ ، وعنْدَئذ شقَّتْ نطاقَها شِقَّيْنِ ـ والنِّطاقُ قِطْعَةٌ من الْقُماشِ



كـانتِ الْمـرْأَةُ تربِطُ به وَسَطها ـ ورَبَطت الطَّعـامَ بِشِقٍّ ، ورَبطتْ وسَطَها بالشِّقِّ الآخَرِ ، فلمَّا علم الرَّسولُ ﷺ أَثْنَى عليْها ودعَا اللَّهَ أَنْ يُبْدِلهَا بنِطاقَيْنِ فى الْجنَّةِ . ومُنْذُ هذا الْوقْتِ وهى تُعْرَفُ باسْمِ (ذاتِ النِّطاقَيْنِ) .

ولمْ يَقْتَصِرْ دَوْرُ (أَسْماءَ) على حَمْلِ الطَّعام إلى الرَّسول ﷺ ، بلْ كانَتْ تسْتَقْصِى أَخبْارَ الْمُشْرِكينَ ، وتسْمَعُ ما يقُولونَهُ ، ثمَّ تُخْبِرُ به رسُولَ اللَّهِ ﷺ حتى لا يُداهِمَهُ خطَرٌ أَوْ يُصيبَهُ مكْروهٌ .

وكانَ الْمُشْرِكون يَعْرِفون دَوْرَها الْكَبيرَ وما تَقومُ به ، ورَجَّحُوا أَنَّها تعْرِفُ مكانَه .

وذاتَ يوْم ذهبَ (أبُو جهْلٍ) إلى بَيْتِها والشَّرُّ يتطايَرُ مِنْ عَيْنيهِ ، وسألها فى غِلْظَةٍ :

ـ أَيْنَ مُحَمدٌ وَأَبوكِ ؟

فقالتْ فى ثَباتٍ :

ـ لا أَعْرِفُ يا عَدُوَّ اللَّهِ .

لكنَّ (أَبا جَـهْلٍ) رفعَ يدَهُ الغَليظَةَ الآثِمـةَ ، ولَطَمَ هذه الطِّفْلَةَ الصَّغيرةَ لَطْمَةً عَنيفةً فَسَالَ الدَّمُ على وجْهِها . لكنَّ وجْهَهَا ظلَّ شامِخًا وقالَتْ :



ـ أتَضْرِبُ امْرأَةً غابَ عَنْها أَهْلُها أَيُّها الْجبانُ ؟!

فانْصَرَفَ (أَبُو جهْل) مُطَأْطِئَ الرأْسِ يُحيطهُ الْخَجلُ والْعارُ من كلِّ جَانبٍ ، فقدْ كانتْ أَخْلاقُ الْعَرَب فى الْجاهليَّةِ ترْفُضُ أَنْ تَمْتَدَّ يدُ الرَّجُلِ إلى النِّساءِ ، لكنَّ هذا الرجُلَ قد تجرَّدَ منْ مُرُوءَتهِ ونَخْوَتهِ . وبقِيَتْ (أَسْماءُ) صَامِدَةً ثابِتَةً فى كلِّ مَوَاقِفِها .

ومرَّتِ الْعاصِفَةُ بسلامٍ . . وبِرَغْمِ ما كانَ بها منْ آلامٍ وجراحٍ لايَتَحمَّلُها جَسَدُها النَّحيلُ ، إلا أَنَّها كانتْ تشْعُرُ بالارْتِياحِ والطُّمَأْنينَةِ ، لأَنَّها أُوذيَتْ فى سَبيلِ اللَّهِ .

وتابعتْ أَدَاءَ مُهِمَّتِها وهى تَتْلُو قوْلَه تعالَى :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ * ولَقَدْ فَتَنَّا الَّذينَ منْ قَبْلِهِمْ ، فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

(العنكبوت : ٢و٣)

وإِذا كانت (أَسْماءُ) تلْكَ الْفتاةُ الصَّغيرةُ الْمُؤْمنةُ ، التى ترَبَّتْ على الإِسْلامِ ونشأَتْ فى ظِلِّ تعاليمه ، قدْ تَصَرَّفتْ بِمِثْلِ هذا الثَّباتِ وهذهِ الشَّجاعَةِ مع (أَبى جَهْلٍ) ، فقدْ كان لها مَوْقِفٌ آخرُ



مع جَدِّها ، الذى كانَ مُشْرِكًا فى أَثناءِ هِجْرةِ أبيها مع رسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقدْ تصرَّفتْ بذكاء شديدٍ فى هذه الْمَرَّةِ .

كانَ جَدُّها رجُلاً كَفِيفَ الْبَصَرِ طاعِنَ السِّنِّ ، وعِنْدما هاجرَ ابْنُه (أَبوبكْرٍ) أَخذَ مالَهُ لِكَىْ يُنْفِقَهُ فى سَبيلِ الدَّعْوةِ إلى اللَّه ، ولمْ يُبْقِ لأَبْنائِه سوَى الْقليلِ منَ الْمالِ . فدخلَ هذا الْجَدُّ على (أَسْماءَ) وإِخوتِها وقالَ فى غضَبٍ :

ـ واللَّه ، إِنى لأَراهُ قد فَجَعَكُمْ بِمَالِه ، كما فجَعَكُمْ بِنَفْسِه ، ولا شَكَّ أَنَّهُ هاجرَ وأَخذ مالَهُ وأَنْفَقَهُ على مُحَمدٍ وأَصْحابِه ، بَيْنَما ترَكَكُمْ بلا مَالٍ .

لكنَّ (أَسْماءَ) التى كانَ الإِسْلامُ يَمْلأُ قلْبَها قالتْ فى ثباتٍ وذكاءٍ :

ـ كلاَّ يا أَبَتِ ، إنَّه قد تركَ لنا خَيْرًا كَثِيرًا .

وأَرادَ جَدُّهَا أَنْ يتأَكَّدَ مِنْ صدْقِها فقالَ :

ـ إِذَنْ اصْحَبِينى لِكَىْ أَتَحسَّسَ مَوْضعَ الْمالِ الذى يضَعُ أَبُوكُمْ فِيه أمْوالَهُ .

وبِدونِ أَنْ يُلاحظَ الْجَدُّ ، وضعَتْ (أَسْماءُ) حِجارَةً صغيرةً فى أَكْياسٍ وأَغْلَقَتْها ، ثمَّ وضَعَتها فى الْمكانِ الذى كانَ أَبُوها يضَعُ



فيه الْمالَ ، ثم أَخذَت جَدَّها إلى هذا الْمكانِ فتحسَّسَ موْضِعَ الْمالِ بيَدِه وقالَ :

ـ لاَ بأْسَ . . إِذا كانَ قدْ تركَ لكُمْ هذا فقَدْ أَحْسَنَ ، وفى هذا ما يَكْفيكُمْ .

وفى حَقيقةِ الأَمر ، لمْ يكُنْ (أَبُو بكْر) قد تركَ لأَبْنائه شَيْئًا يُذْكَرُ ، بلْ أَخذَ كلَّ مالِهِ وأَعْطاه للرَّسوُل ﷺ لِكَىْ يُنْفِقَهُ على الدَّعْوةِ ، ولمْ يتْرُكْ لأَولادِه إِلا جُزْءًا يسيرًا .

وعِنْدمَا سأَلَهُ الرَّسولُ ﷺ :

ـ ماذا تركْتَ لأَهْلكَ يا (أَبا بَكْرٍ) ؟

أَجابَ (أَبُو بكر) فى يَقينٍ :

ـ تركْتُ لهمُ اللَّهَ ورسُولَهُ .

وما أَرْوَعَ هذه الإجابَةَ وأَعْمَقَهَا . وقدْ كانَتْ (أَسْماءُ) تَعِيها وتُدْرِكُ حَقِيقتَها ومَعْناها هى وسائرُ إِخوتِها ، لِذلكَ لمْ يَشْعُروا فى أَيَّةِ لَحْظَةٍ بالْحاجَةِ إِلى الْمالِ ، لأَنَّهُمْ كانوا على ثِقةٍ بأَنَّ اللَّهَ الذى خلَقَ الإِنْسانَ ومَنَحهُ الحياةَ هو وحْدَهُ الْقادِرُ على أَنْ يَمْنَحَه الرِّزْقَ والْمالَ .



ولذلك فقدْ كان (أبو بكْرٍ الصّدّيقُ) مِن أَحبِّ النَّاسِ وأقْربِهمْ إلى قلْبِ النّبىِّ ﷺ . فعِنْدَما سُئِلَ النّبىُّ ﷺ عنْ أَحبِّ النّاسِ إليْهِ أَجَابَ :

ـ (أَبُو بَكْرٍ) .

وعِنْدما كَبرَتْ (أَسْماءُ) وبلَغَتْ سِنَّ الزَّواجِ ، تقدَّمَ الصَّحابِىُّ الْجَليلُ (الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوّامِ) للزَّواجِ مِنْها ، وهو ابْنُ عَمَّةِ الرّسولِ ﷺ وأَحَدُ الْعَشْرَةِ الْمُبَشَّرينَ بِالْجَنَّةِ .

كان (الزُّبَيْرُ) فى بادِئِ أَمْرِه فقيرًا ، فكانت (أَسْماءُ) نِعْمَ الزَّوْجَةُ الصَّابِرَةُ الصّامِدةُ ، التى لا طُمُوحَ لها سِوى الْعَيْشِ فى إيمانٍ وحُبٍّ ووِئام .

وتحمَّلَتْ (أَسْماءُ) مع زَوْجِها صُعُوبَةَ الْحياةِ وقَسْوَتَها ، إلى أنْ صارَ مِنْ أَكْثرِ الصّحابةِ ثَراءً وغِنًى .

وبَعْدَ فَتْرةٍ منْ هِجْرةِ الرّسولِ ﷺ إلى الْمدينَةِ ، هاجَرَتْ (أَسْماءُ) هى وزَوْجُها ، وكانتْ فى شُهُورِ حَمْلِها الأَخيرةِ ، ولمْ يَمْنَعْها الْحَمْلُ ولا آلامُهُ منْ تَحمُّلِ مشَاقِّ الرِّحْلَةِ الطَّويلةِ ، وذلك لكىْ تَعيشَ فى مُجْتَمَعٍ إسْلامىٍّ يَسُودُهُ الْبِرُّ والرَّحْمةُ ، ويغْمُره الْعَدْلُ والْوِئامُ .



وفى الْمدينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وضعَتْ (أَسْماءُ) مَوْلُودَها الأَوَّلَ (عَبْدَ اللَّهِ بنَ الزُّبَيْرِ) وكان أَيْضًا أوَّل مَوْلُود يُولَدُ لِلْمُسْلمينَ بعْدَ هِجْرَتِهِمْ إِلى الْمدينةِ .

كانتْ (أَسْماءُ) مِنَ الْمُسْلمات اللاَّتى لا يعْرِفنَ الضَّعْفَ أَبدًا ، فقدْ كانتِ الْقُوَّةُ والصَّلابَةُ هى أَهَمَّ صِفاتِها ، وخاصَّةً إِذا كانتْ هذه الْقُوَّةُ فى الْحَقِّ .

فذاتَ يَوْم قدمَتْ عليْها أُمَّها بهَدِيَّةٍ قَيِّمةٍ ، وكانتْ مُشْرِكَةً ، وأَرادتْ أَنْ تقْبلَها مِنْها ، لكنَّها رَفَضتْ أَنْ تقْبلَ هدِيَّتَها ، بلْ رَفَضَتْ أَنْ تُدْخِلَها بَيْتَها .

وعِنْدما سأَلتِ السَّيِّدَةُ (عائِشَةُ) الرَّسولَ ﷺ عنْ مَوْقِف (أَسْماءَ) مِنْ أُمِّها ، لاَمَها وأَمَرهَا أَنْ تقْبلَ هدِيَّتَها وتُدْخِلَها بَيْتَها . ونَزَلَ قوْلُهُ تعالَى :

﴿ لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

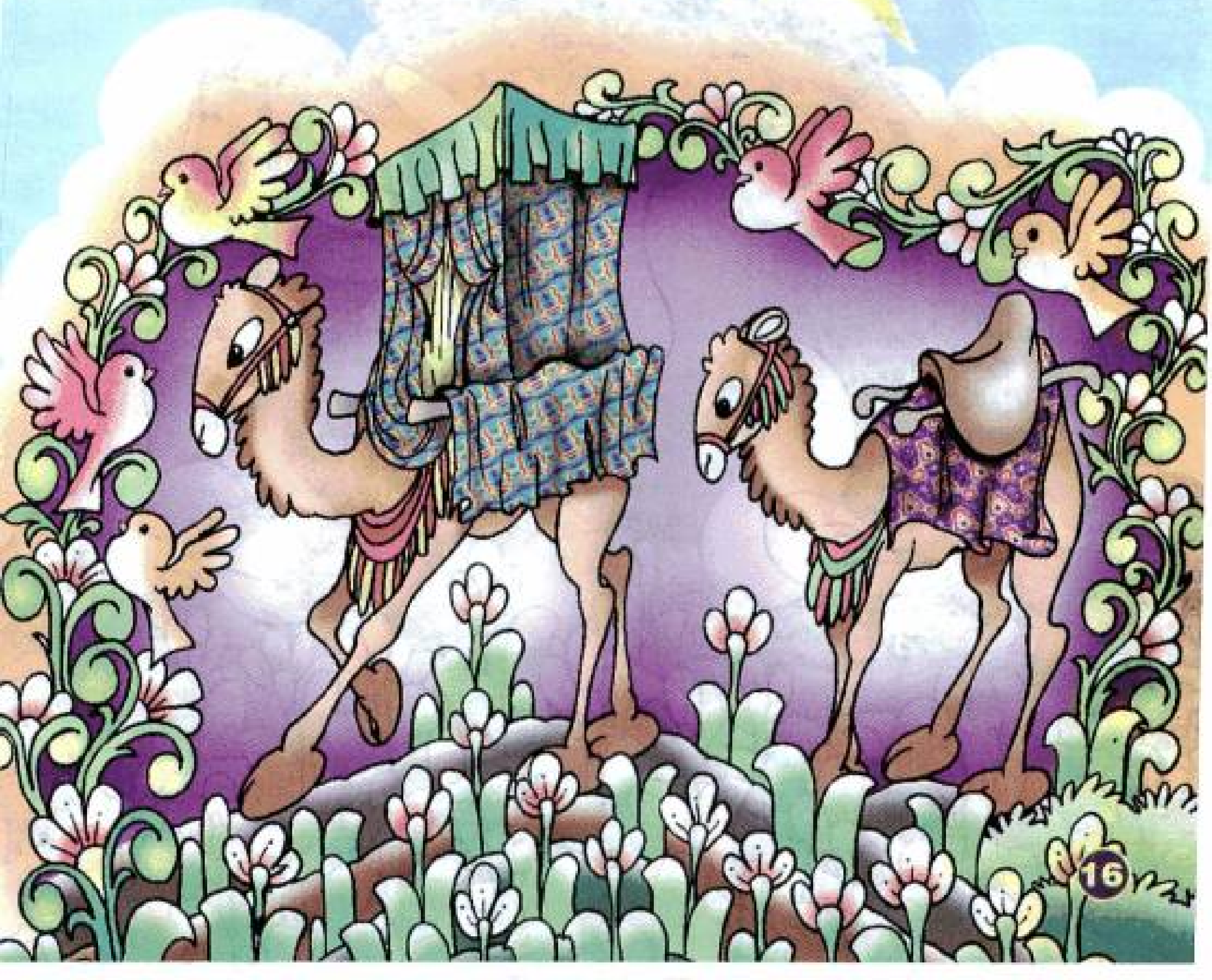
(الْمُمْتحنَةُ : ٨)

وتعَلَّمتْ (أَسْماءُ) الدَّرْسَ ، ففَتَحتْ بابَها لأُمِّها وحاولَتْ جاهِدَةً أَنْ تشْرَحَ لها الإِسْلامَ وما يَدْعُو إِلَيْه الرَّسولُ ﷺ



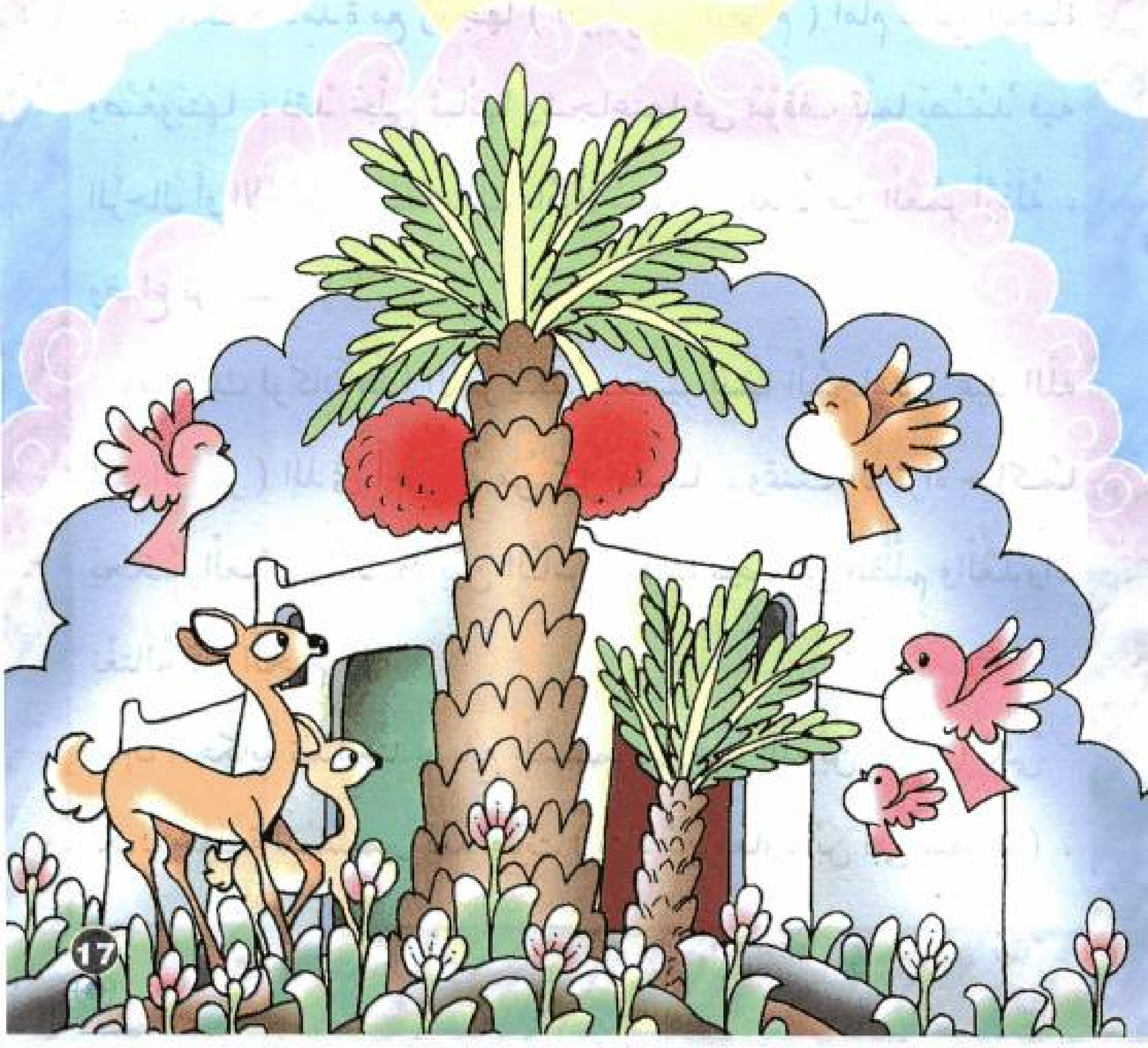
مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ ، والْحَضِّ على الْفَضِيلةِ .

كانتْ (أَسْماءُ) كَرِيمةً جَوادًا ، تَجُودُ بِما تَمْلِكُ ، وتتصدَّقُ على الْفُقَراءِ والْمَساكِينَ .



وقدْ حكَى ابْنُهَا (عبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْرِ) عنْ جُودِها قَائلاً :

ـ ما رَأَيْتُ امْرَأَتَيْنِ أَجْوَدَ مِنْ خالَتِى (عائِشَةَ) وأُمِّى (أَسْماءَ)

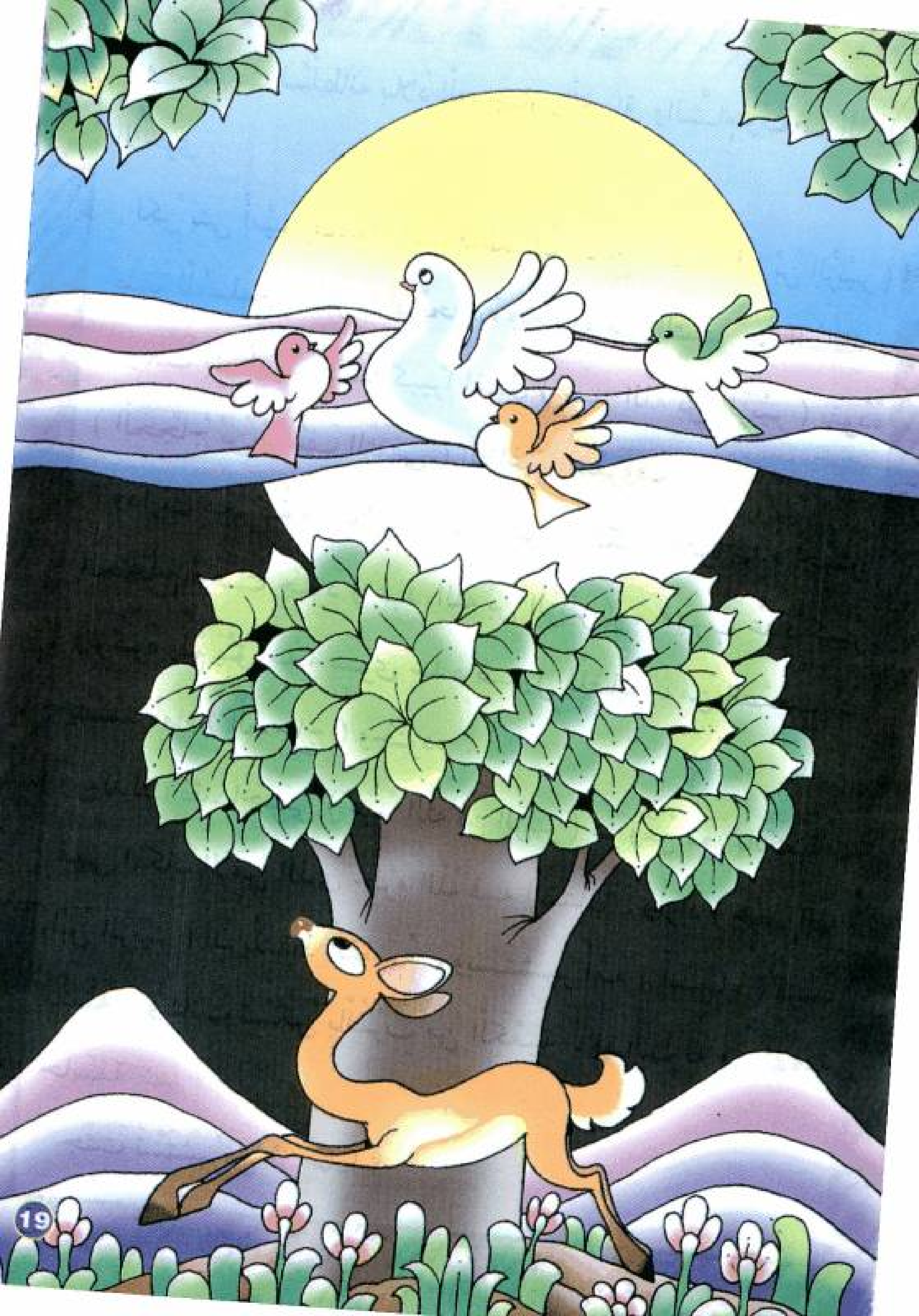


لكنَّ جُودَهُما كان مُخْتَلِفًا : أَمَّا خَالَتى فكانتْ تَجْمعُ الشَّىْءَ إلى الشَّىْءِ حتى إذا اجْتَمعَ عِنْدها ما يَكْفى ، قسَّمَتْهُ بيْنَ ذَوِى الْحاجَاتِ ، وأَمَّا أُمِّى فكانتْ لا تُمْسِكُ شيْئًا إلى الْغَدِ .

وإذا كانتْ (أَسْماءُ) ثابِتَةً صامِدَةً معَ الْمُشْركينَ ، فلَمْ تضْعُفْ أمامَ (أَبى جَهْلٍ) ، كما لم تَضْعُفْ أمامَ جدِّها الْعاجِزِ الْكَفيفِ ، وإذا كانتْ صامِدَةً مع زَوْجِها (الزُّبَيْرِ بن الْعَوَّامِ) أمامَ قَسْوَةِ الْحياةِ وصُعُوبَتِها ، فقدْ تجلَّى ثَباتُها وشجاعَتُها فى مَوْقِفٍ قلَّما يَصْمُدُ فيه الرِّجالُ أَوِ الأَبْطالُ ، فما بَالُكَ بامْرأَةٍ مُسِنَّةٍ ، بلغَتْ من الْعُمْرِ أَرْذَلَهُ ، وضاعَ نورُ بَصَرِها ؟

وما بَالُكَ لوكانَ هذا الأَمْرُ يتعلَّقُ بِمَصيرِ ابْنِها الْمُجاهِدِ (عبدِ اللَّه ابنِ الزُّبَيْرِ) الذى أَحَبَّتْهُ من كلِّ قلْبِها ، وتمنَّتْ أَنْ تراهُ حاكِمًا يَحْكُمُ بالْعَدْلِ والْقِسْطِ بَيْنَ النَّاس ، فإِذا بجُيُوشِ الظُّلْمِ والْعُدْوانِ تغْتالُهُ فى الْحَرَمِ ؟!

إِنَّ الْحِكايَةَ تبْدَأُ عنْدما بايَعَ الْمُسْلمونَ (عبدَ اللَّه بْنَ الزُّبَيْرِ) لكىْ يكونَ خلِيفَةً للْمُسْلِمينَ بَعْدَ موْتِ (يَزيدَ بْنِ معَاويَةَ بْنِ أَبى سُفْيانَ) .



وخضعتْ لسُلْطانه بلادُ الْحجازِ والْعِراقِ والشَّامِ ومُعْظَمُ الدُّوَلِ الأُخْرَى .

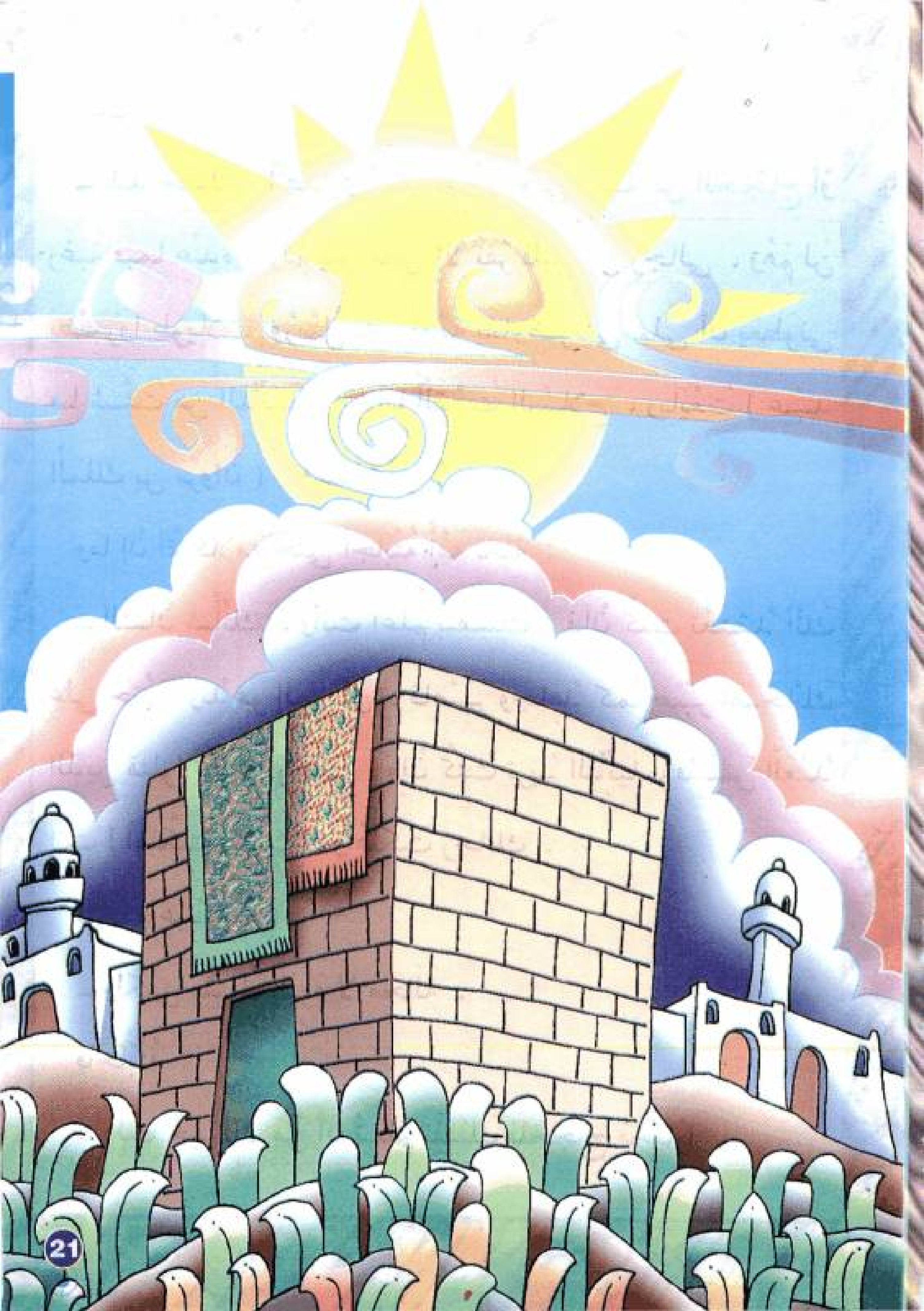
لكنَّ بَنى أُمَيَّةَ رفَضوا رفْضًا قاطعًا أنْ يُصْبِحَ (عبْدُ اللَّه بْنُ الزُّبْيرِ) خليفةً للْمُسلمين ، فقرَّروا أنْ يُحارِبُوهُ ويَجْبرُوهُ على التَّنَحِّى عنِ السُّلْطة .

وبعثَ بَنُو أُمَيَّةَ جيْشًا كبيرًا لِقتالِ (عبدِ اللَّه بنِ الزُّبَيْرِ) يقودُهُ (الْحجّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقفِىُّ) الطَّاغيةُ الْمعْروفُ .

ودارتْ مَعْركةٌ عَنيفةٌ بيْن الْجَيْشَيْن ، لكِنَّ كَثْرةَ عَدَدِ جَيْشِ الْحجّاجِ أَرْهَبَتْ جُنودَ (عبدِ اللَّه بْنِ الزُّبَيْر) ، فهرَبَ عددٌ كبيرٌ وتركُوهُ ولمْ يَبْقَ معُه سِوى عددٍ ضئيلٍ للْغايةِ ، مِنَ الصَّعْبِ أنْ يصْمُدَ أمامَ (الْحجّاجِ) وجُنُودِه .

ولذلك فقدِ احْتَمَى (عبْدُ اللَّه بنُ الزُّبَيْر) هو ومَنْ معهُ بالكَعْبة ، فهى المكانُ الآمِنُ الذى حرَّم اللَّهُ فيه الْقتالَ . وأرادَ (عبْدُ اللَّه ابْنُ الزُّبَيْر) أنْ يلْتَقِطَ أنْفاسَهُ ، ويسْتَشيرَ أُمَّهُ (أَسْماءَ) فيما يفْعَلُهُ ، وكانتْ تسْكُنُ بالْقُرْبِ منَ الْكَعْبةِ ، فقالتْ له فى لَهْجَة حاسَمة :ـ

جئْتَ تَسْتَشيرُنِى فى مَاذا ؟



فقالَ (عبدُ اللّهِ) :

ـ لقَد خَذَلَنى أَنْصارى ، وانْحازُوا عَنّى رَهْبَةً من الْحجّاجِ أَوْ رغْبَةً فيما عِنْدهُ ، ولَمْ يَبْقَ معى إلا نَفرٌ قليل مِنْ رجالى ، وهُمْ لنْ يصْبِروا طويلاً ، ورُسُلُ بنى أُمَيَّةَ يفاوضُونَنى على أَنْ يُعْطونى ما شِئْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، إِذا أَنا أَلْقَيْتُ السِّلاحَ ، وبايَعْتُ (عبْدَ الْمَلكِ بن مَرْوان) . فماذا تريْنَ ؟

ومَا إِنْ أَتمَّ كلامَهُ حتى أَجابَتْهُ أُمّه قائلةً :

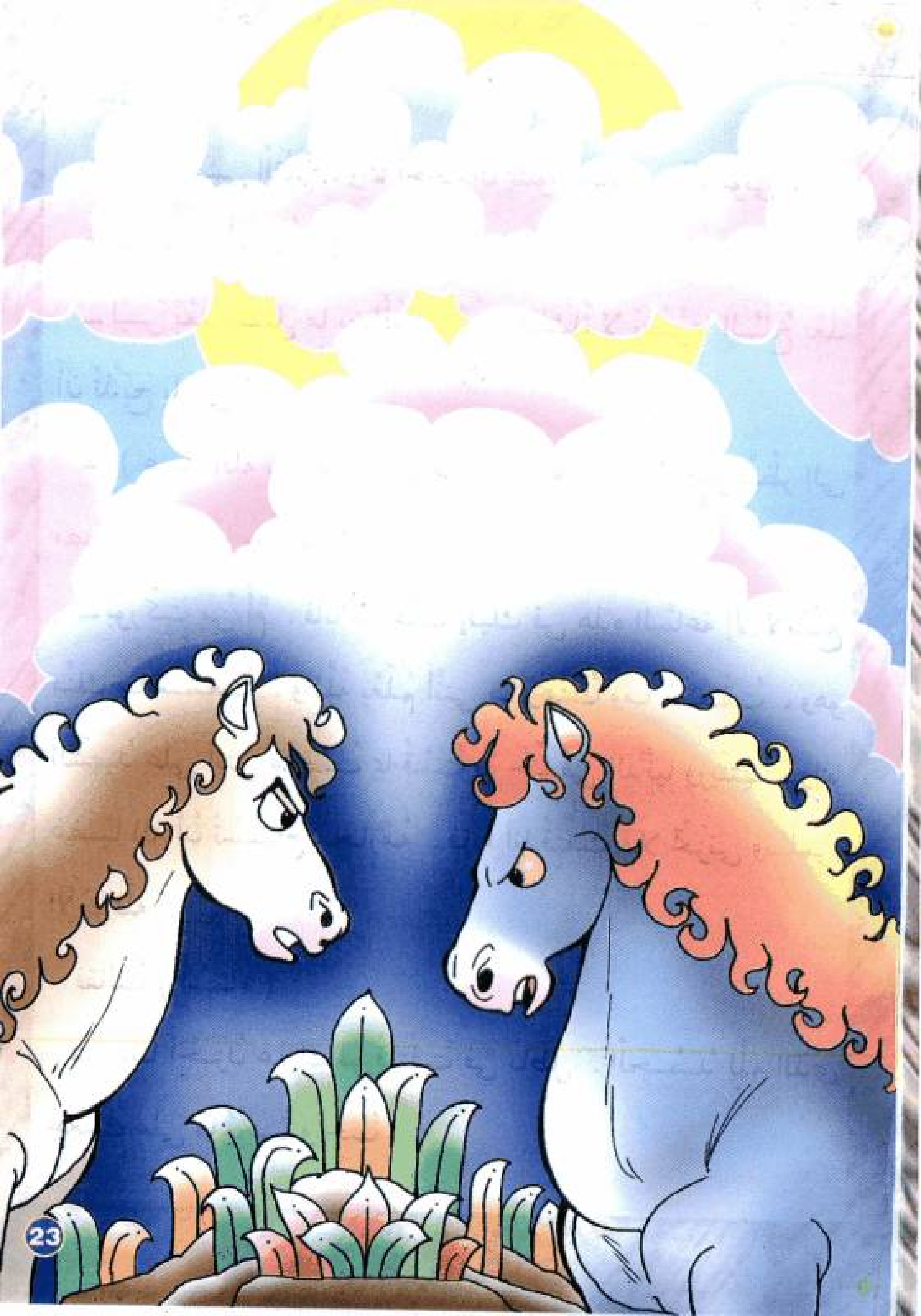
ـ الشَّأْنُ شأْنُكَ ، وأَنتَ أَعْلَمُ بنفْسِكَ ، فإِنْ كُنْتَ تعْتَقدُ أَنَّك على حَقٍّ ، وتدْعو إلى حَقٍّ ، فاصْبِرْ وجاهِدْ كما صَبَر أَصْحابُكَ الذين قُتلوا تَحْتَ رايَتِكَ . وإِنْ كُنتَ تريدُ الدُّنْيا ، فلَبِئْسَ الْعَبْدُ أَنْتَ ! أَهْلكْتَ نَفْسكَ ، وأَهْلكْتَ رِجالَك .

فقالَ (عبدُ اللّه) :

ـ ولكنّى مَقْتولٌ الْيوْمَ لا مَحالَةَ .

فأَجابَتْهُ :

ـ ذلك خيرٌ لك من أَنْ تُسلِّمَ نفْسَكَ للْحجّاجِ مُخْتارًا .



فقالَ :

ـ لسْتُ أَخْشَى الْقَتْلَ ، وإِنما أَخافُ أَنْ يمثِّلوا بجسَدِى بعْدَ مَوْتى .

فابْتَسَمتْ (أَسْماءُ) وقالتْ :

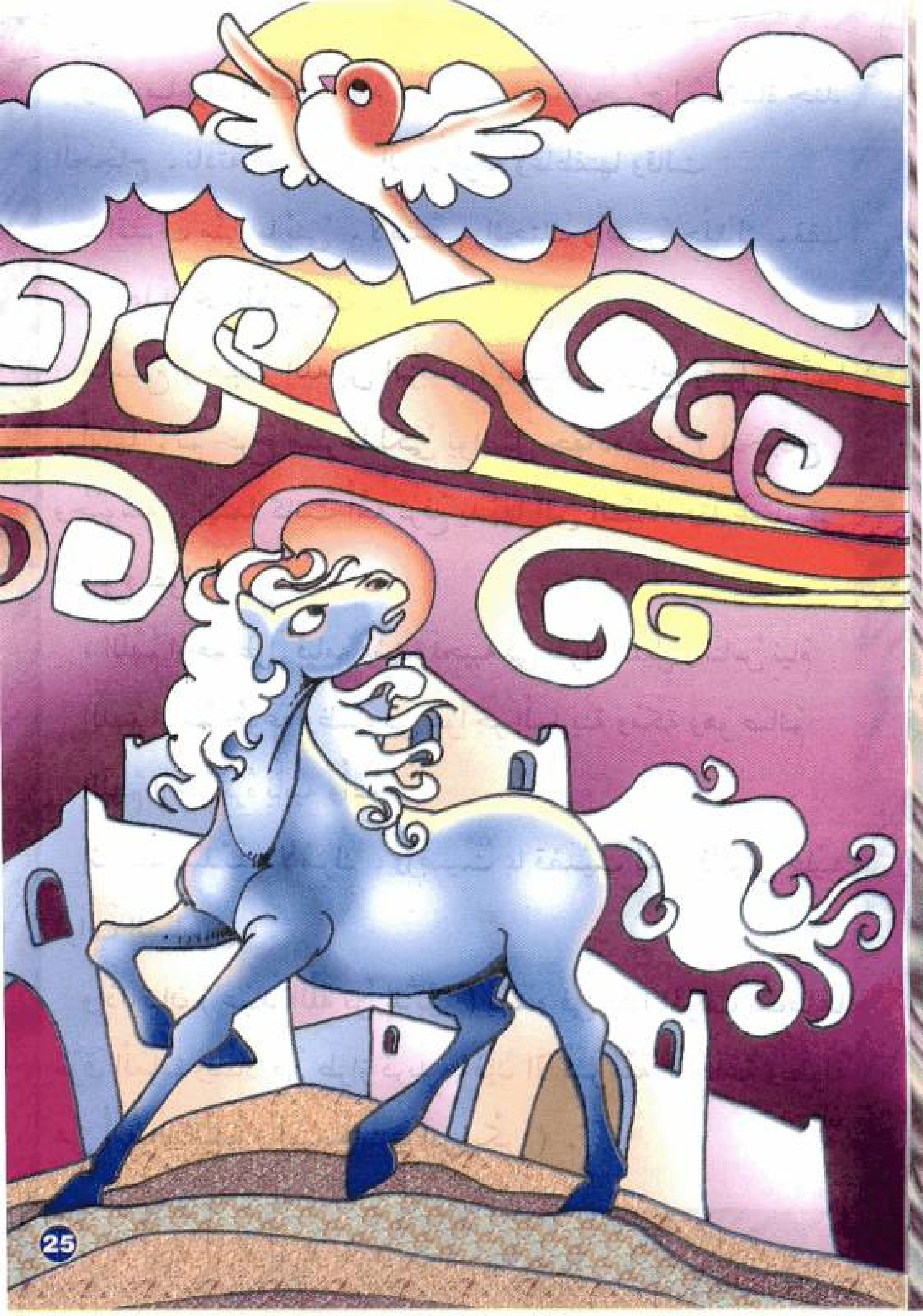
ـ ليْسَ بَعْدَ الْقَتْلِ ما يخافُهُ الْمَرْءُ . فالشَّاةُ لا يَضُرُّها السَّلْخُ بعْد أَن تُذْبَحَ يا بُنَىَّ !

هزَّ (عبدُ اللَّه بنُ الزُّبَيْر) رأْسَه مُوافقًا ، وقال وهو يَنْظُرُ إِلى مَصيرِه فى رضًا واسْتِسْلام :

ـ بُورِكْتِ من أُمٍّ . فأَنا ما جئْتُ إليْكِ فى هذه السَّاعةِ إلا لأَسْمعَ منْكِ ما سَمِعْتُ . واللَّهُ يعْلَمُ أَنَّنى ما وهَنْتُ وما ضَعُفْتُ ، وهو الشَّهيدُ على أَننى ما قُمْتُ بما قُمْتُ به حُبًا فى الدُّنْيا وزِينَتِها ، وإِنما غضبًا لِلَّه أَنْ تُسْتَباحَ مَحارِمُهُ . فإِذا أَنا قُتِلْتُ فلا تحْزَنى وسَلِّمى الأَمْرَ للَّه .

فقالتْ (أَسْماءُ) :

ـ إِنَّما أَحْزَنُ عليكَ لو قُتِلْتَ فى باطِلٍ . الْحَمْدُ للَّه الذى جعَلكَ على ما يُحِبُّ وأُحِبُّ .



وعِنْدما أرادَ (عبـدُ اللَّه) أَنْ ينصـرِفَ ويخرُجَ لِمُلاقاةِ جُنْدِ الْحَجَّاجِ ، نادَتْهُ أُمُّه فى حنانِ الأُمُومةِ وعاطِفَتِها وقالت :

ـ اقْترِبْ منِّى يا بُنَىَّ ، لأتشمَّمَ رائحتَكَ وألْمَسَ جِلْدَكَ ، فقدْ يكونُ هذا آخرَ الْعَهْدِ بكَ .

فأسْرعَ (عبـدُ اللَّه بنُ الزُّبيـر) نَحْوَها ، وراحَ يُقَبِّلُ يدَيْها ورأسَها ، ثم خرجَ مُسْرِعًا لِكَىْ يواصلَ جهادَه ضدَّ (الْحَجَّاجِ) وجُيُوشِه ، بَيْنما كانتْ أُمُّه ترفعُ يدَيْها إلى السَّماءِ وتَدْعُو لهُ فى خُشُوعٍ بقوْلِها :

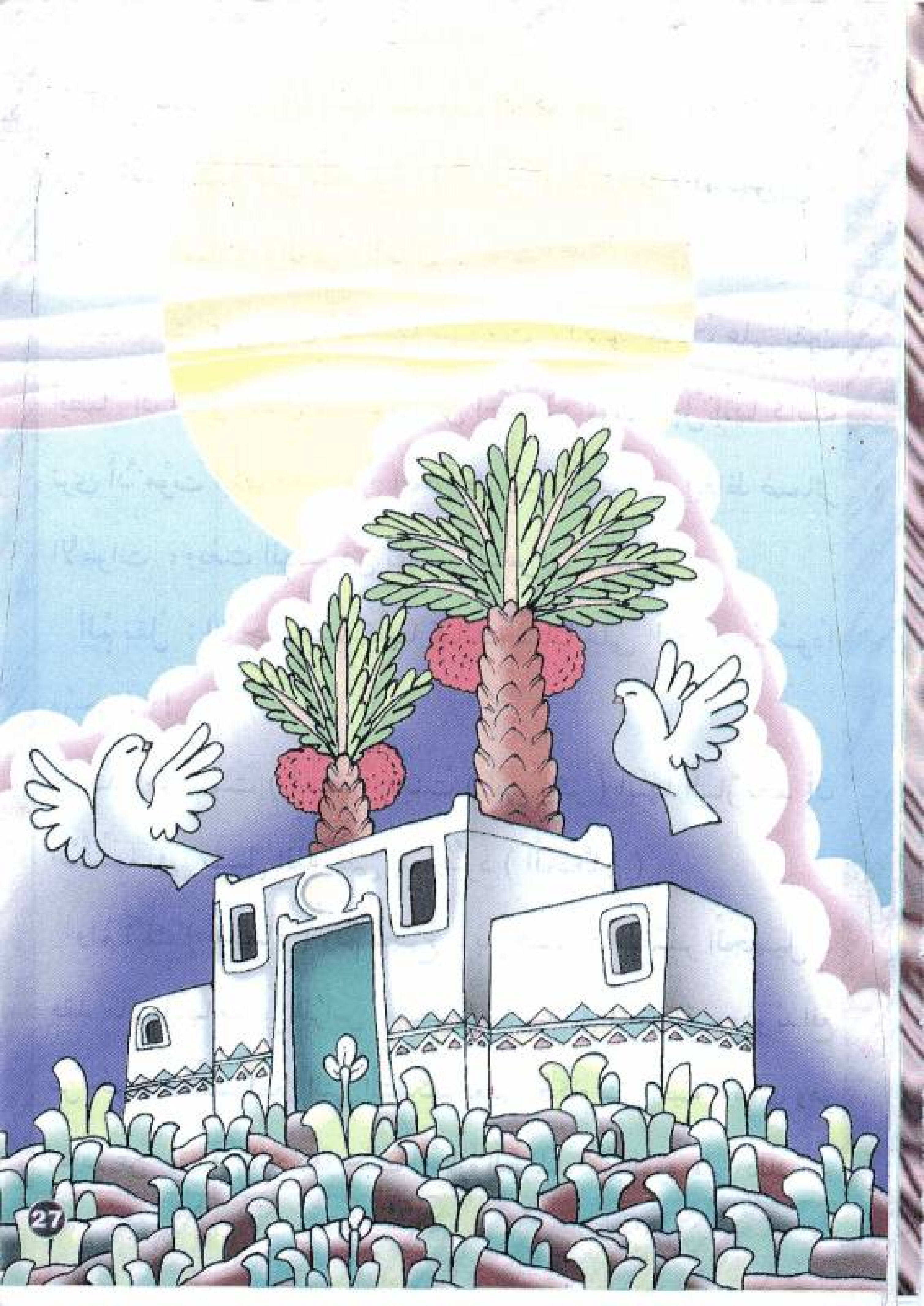
« اللَّهُمَّ ارْحَمْ طُولَ قِيامِه وشِدَّةَ نَحِيبِه فى سَوادِ اللَّيلِ والنَّاسُ نِيامٌ .

اللهمَّ ارْحَمْ جُوعَه وظَمأَهُ فى هواجِرِ الْمدينةِ ومَكَّةَ وهوَ صائمٌ .

اللهمَّ ارْحَمْ بِرَّهُ بأَبيه وأُمِّه .

إنى قد سَلَّمْتُه لأمْرِكَ ، ورَضِيتُ بما قضَيْتَ له ، فأَثِبْنى عليْهِ ثوابَ الصَّابرينَ » .

وإذا كانَ (عبْدُ اللَّهِ بنُ الزُّبَيْر) يَبْدُو فى هذا الموْقفِ شُجاعًا فوْقَ الْعادَةِ وبطَلاً مِنْ طِرازٍ فريد ، فإنَّ الأكْثرَ منْهُ شجاعَةً وبُطُولَةً هى أُمُّهُ الْعظيمةُ (أسْماءُ بنتُ أَبى بكرٍ) .



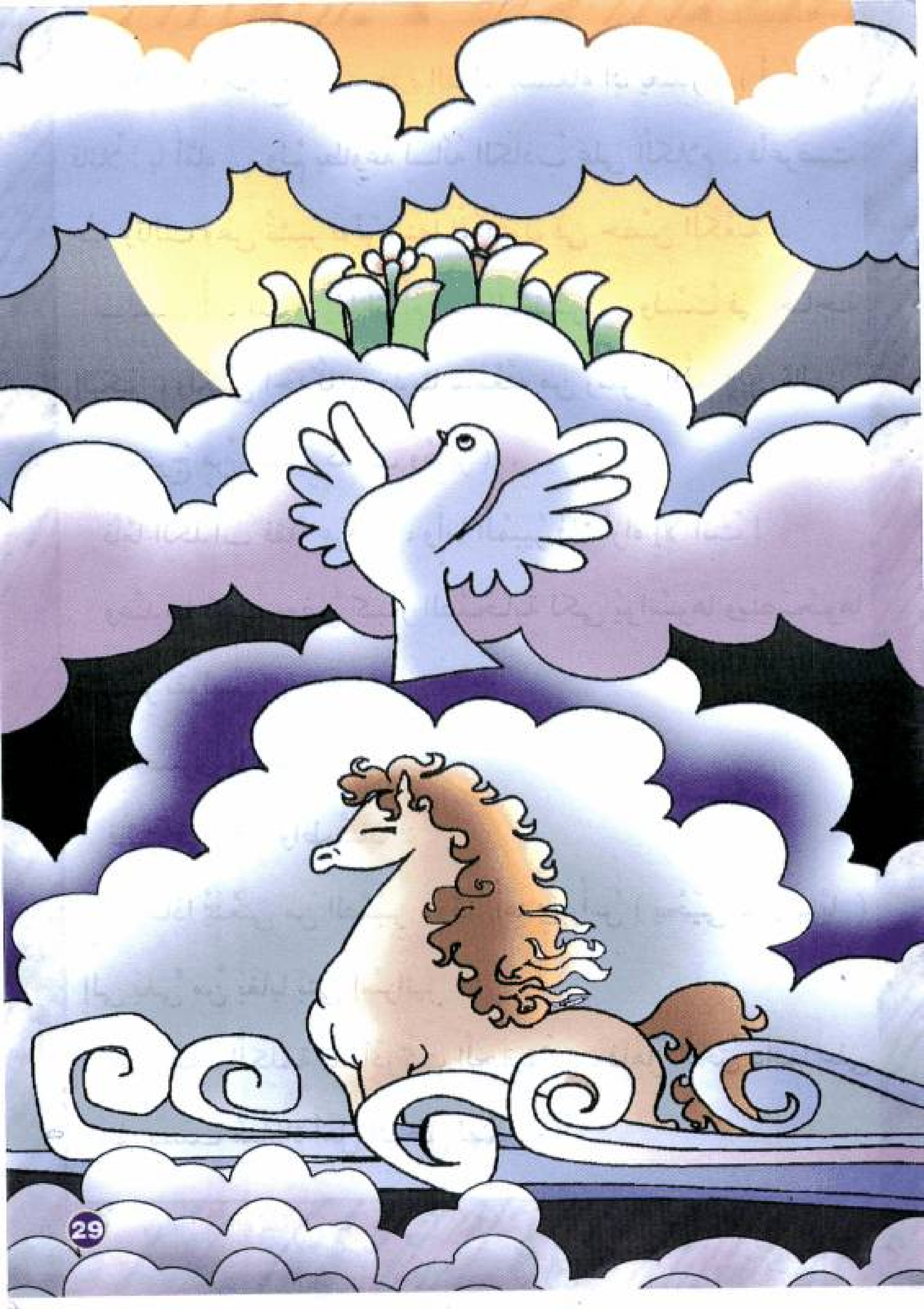
فَقَدْ كانَتْ تعلَمُ أَنَّ ابْنَها سيموتُ إِنْ هو خَرجَ منْ عِنْدِها ، ومع ذلك فقدْ حَثَّتْهُ على الْخُروجِ دِفاعًا عنِ الْمَظْلُومينَ والْمَقْهورينَ ، وانْتِصارًا لِلْمَبادِئِ والْحقِّ والْعَدْلِ .

لقد كانتْ على يقينٍ أَنَّ ابْنَها سيموتُ ، لكنَّهَا كانتْ على يقينٍ أَيضًا أنَّ الْحقَّ الذى سيموتُ منْ أَجْلِه لنْ يموتَ ! بَلْ إِنها كانتْ ترى أَنَّ موْتَ ابْنِها دفاعًا عنِ الْحقِّ قدْ يكونُ سببًا فى إِيقاظِ ضمائرِ الأَمْواتِ ، وبعْثِ الْهِممِ فى نُفُوسِ النَّاسِ مِنْ جديدٍ .

أَلَمْ نقُلْ : إِنَّ حيَاتَها كُلَّها كانتْ ثَبَاتًا على الْحقِّ وصُمُودًا ورُجولَةً ؟!

وقد احْتَسَبَتْ (أَسْماءُ) بنتُ (أَبى بكرٍ) ابْنَها الْبَارَّ بعْدَ أَنِ اسْتُشْهِدَ فى سبيلِ اللَّه على يَدِ جُنُودِ (الْحَجَّاجِ) .

ولمْ تَبْكِ (أَسْماءُ) ولمْ تَجْزَعْ ، بل صبرتْ الصَّبْرَ الْجَميلَ ، فقد مات ابْنُها مَرْفوعَ الرَّأْسِ ، شهيدًا فى ساحةِ الْمعْركةِ ، وهو يُدافعُ عنْ حُرُماتِ الْمُسلمين التى انْتَهكهَا بعْضُ حُكَّامِ بنى أُمَيَّةَ ، ماتَ وهو يدافعُ عنْ حقِّه فى الْخِلافَةِ حيْثُ اخْتارَهُ الْمُسْلمون وبايَعُوهُ على ذلك .



وحاولَ (الْحجّاجُ) بعْد هذه الفَعْلة الشّنعاء أنْ يَعْتذِرَ لـ (أَسْماءَ) قائلاً : يا أُمّاه .. ولمْ يطاوِعْهُ لِسانُهُ الكاذبُ على الْكلام ، فأَعرَضتْ عنْه وقالت وهى تُشيرُ نَحْوَ ابْنِها الْمَقْتولِ فى حِضْنِ الْكعْبَة :

ـ لستُ أُمّا لك ، إنما أنَا أُمُّ هذا الْمَقْتُولِ ، ولسْتُ فى حاجة إليكمْ ، ولَكنّى أُحَدّثُك حديثًا سمِعْتُه من رسُولِ اللَّه ﷺ قال :

(يخرجُ مِنْ ثَقِيف كذّابٌ ومُبِيرٌ) .

فأَمّا الكذّابُ فقدْ عرَفناهُ ، وأَما الْمُبِيرُ فلا أَراهُ إلا أَنْتَ !

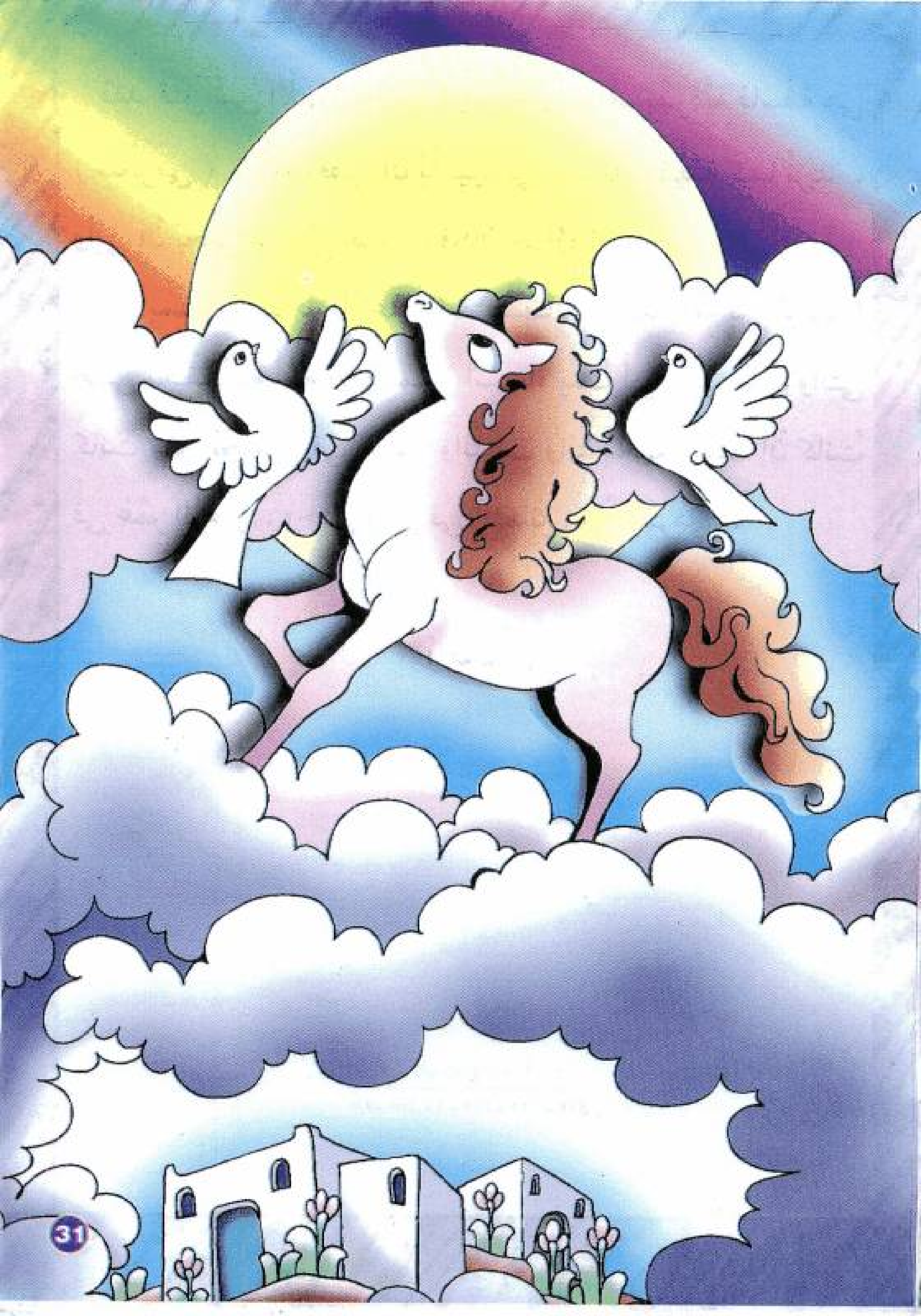
وعِنْدَما ذهبَ بعضُ كِبارِ الصّحابةِ لكى يُواسُوهَا وينْصَحُوهَا بالصّبْرِ بقوْلِهِمْ :

ـ اصْبِرى يا أُمّاهُ !

قالتْ فى رضًا واطمئْنان :

ـ وماذا يمْنَعُنى منَ الصّبْرِ ، وقدْ أُهْدِى رأْسُ (يحْيَى بن زكَرِيّا) إلى بَغِىٍّ منْ بَغَايا بَنى إسْرائيلَ ؟!

إنها بهذِه الْكَلمةِ قد أَدْركَتِ الْحقيقةَ .. فأَهْلُ الْحقِّ دائمًا على خَطَرٍ بسببِ مُعاداة أَهْلِ الْباطِلِ لهمْ .



فقدْ قُتِلَ نَبىُّ اللَّه (يَحْيَى) بِناءً على أَوامِرِ يهُودِيَّةٍ فاسِقَةٍ هى (سَالُومى) . لأَنَّه رفضَ أَنْ يُفْتِيها فى مسَائِلَ فِقْهِيَّةٍ كما تُريدُ ، وأَبَى أَنْ يُحَلِّلَ ما حرَّمَ اللَّهُ . . فكان جزَاؤهُ الْقَتْلُ .

ولمْ يَمْضِ وقتٌ طويلٌ على استِشْهادِ (عبْدِ اللَّهِ بنِ الزبير) حتى لَحِقَتْ به أُمُّه الْعظيمةُ (أَسْماءُ بِنْتُ أَبى بكْرٍ) . . والتى كانتْ مَثَلاً يُحْتَذَى فى الصَّبْرِ والثَّباتِ والتَّضْحية ، مُنْذُ أَنْ كانتْ فى عُمْرِ الزُّهورِ ، وحتى وهى فى الثَّمانِينَ مِنْ عُمْرِها . .

(تمَتْ)

رقم الإيداع : ٢٠٨٠
الترقيم الدولى : ٤ ـ ٣٠٧ ـ ٢٦٦ ـ ٩٧٧